العدد (1909) السنة الثامنة - الأحد (19) أيلول 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الآراء الـواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

- دعـــــوة -

تدعو صفحة آراء وأفكار الكتاب الى مناقشة واقع التيارات العلمانية في البلاد وما يمكن أن تلعبه من دور في خلق التوازن السياسي وكيف يمكن تفعيل تواجدها في الشارع العراقي بما يساهم في خلق التنوع الفكري وصولاً الى التعددية السياسية بصيغها التنظيرية والتطبيقية.

العلمانية والتنوع الفكري في العراق

ميعاد الطائي

شكل ملف جريدة المدى حول العلمانية في العراق نقطة مهمة جداً في استقراء الواقع العراقي بعد التغيير الشامل وأيضا بعد تجربتين انتخابيتين خضعت كل منهما لظروف تختلف عن الأخرى وكذلك تختلف عن بقية تجارب دول العالم .

والمراقب لنتائج هاتين التجربتين يمكنه أن يكتشف بعض الحقائق التي تمثل التنوع الأيدلوجي في العراق من جهة ومن جهة ثانية يمكنه استخلاص جملة من الحقائق الثابتة من مخرجات هاتين التجربتين في العراق .

فالتنوع الأيدلوجي في العراق هو ليس وليد لحظته ولم يكن من نتائج التغيير التي حصل بعد نيسان/ أبريل ٢٠٠٣ بقدر ما هو موجود منذ عقود طويلة بل منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة عام ١٩٢١ وبروز الأحزاب التي كان لها دور كبير في قضايا عديدة.

ولعل المتابع للتاريخ والشأن العراقي سيكتشف غياب هذه الأحزاب بانتهاء الحكم الملكي وبروز الحكومات الناتجة عن الانقلابات والثورات والعسكر والتي بدورها حجمت كل القوى السياسية بمختلف اتجاهاتها الفكرية مكرسة نظاماً أحادي الفكر ذا طبيعة شمولية، وهذا ما أدى إلى ضمور وتحجيم الكثير من الأحزاب وفي مقدمتها الأحزاب ذات التوجهات الليبرالية والعلمانية .

وهذا الوضع الذي امتد لنصف قرن في العراق برزت من خلاله الأفكار القومية التي سيطرت على الشارع العراقي وتوجهاته وخلقت حالة مستمرة من التعبئة لهذا النهج استمر بعضها حتى بعد نيسان ٢٠٠٣ تحت مسميات مختلفة .

وهذا التوجه الذي مورس من قبل الحزب الحاكم آنذاك وعلى نطاق واسع في المجتمع ساهم بشكل كبير في تغييب ليس الأحزاب العلمانية واليسارية والماركسية والإسلامية، مما أتاح له هذا الانفراد بالتثقيف الجماهيري الذي وصل إلى مرحلة بناء فكري حاول من خلالها لصق تهم عديدة بالقوى الوطنية في البلد آنذاك وصل حد اتهامها بالتبعية لهذه الدولة أو تلك وتنفيذ أحكام وصلت حد الإعدام بكوادر ونخب سياسية ذات توجهات علمانية وليبرالية.

من هنا يمكننا أن نؤكد أن العلمانية واجهت حرباً شرسة من النظام الشمولي ، سواء أكانت هذه الأحزاب عربية أم كردية، وربما يتصور البعض بأن الأحزاب الكردية أحزاب قومية تمثل القومية الكوردية فحسب لكننا نجدها أحزاباً قائمة على مبادئ العلمانية من دون أن تتعارض مع ثوابتها وأهدافها .

هذا التنوع الأيدلوجي في العراق الذي سمحت الظروف آنذاك من صعود بعض القوى العلمانية – الليبرالية إلى البرلمان العراقي، لكنها لم تكن ذات تأثير في القرار بقدر ما كانت مجرد رقم تكميلي في ظل هيمنة الأحزاب الأخرى سواء الدينية منها أو القومية التي وجدت الشارع العراقي ينسجم معها بطريقة أو بأخرى تحت تأثيرات متضادة عكستها ظروف الاحتلال وعوامل ثقافية ، مما جعل الأحزاب العلمانية تجد نفس الصعوبات التي كانت تواجهها في حقبة الحكم الشمولي ولكن هذه المرة بآليات ديمقراطية لا يمكن تجاهل نتائجها ومعطياتها.

ولكن يبقى السؤال القائم والذي طرحه البعض في مقالاتهم التي كرست جريدة المدى مساحات لها كيف تحقق القوى العلمانية نجاحات في العراق عبر آليات الديمقراطية ؟

وبطبيعة الحال فإن هذه النجاحات مرهونة بعدة عوامل منها ، كسب ثقة الناخب العراقي ، إيجاد برنامج لهذه القوى والأحزاب قابل للتحقيق ، محو المغالطات الفكرية التي ترسخت في أذهان أجيال عديدة من إن العلمانية والإسلام في صراع ولا يمكن أن يتعايشا في مكان وزمان واحد، مع ضرورة إيجاد مقاربات فكرية جديدة قادرة على طرد المفاهيم القديمة القائمة على أساس تسقيط الآخر .

والشيء الآخر الذي أجده ضرورياً في المرحلة القادمة هو أن تتبنى وسائل الإعلام ذات التوجهات العلمانية أو القريبة منها مهمة ترسيخ مفاهيمها وفق معطيات الواقع العراقي وعدم استيراد الأفكار الغربية التي لا يمكن تطبيقها في مجتمعنا الشرقي أولاً والإسلامي الطابع والتقاليد ثانيا ، ومحاولة تأسيس مقاربات تجمع بين هذا وذاك من إحداث نقلة نوعية في الفكر العراقي بعيدا عن تأثيرات الحقبة الماضية عبر استخدام برامج تثقيفية مجتمعية من شأنها خلق قاعدة التغيير ذاتها .

تمـــــثـــــلات الـــنـــهـــضـــة

المـــنـــهـــج والمـــفـــاهـــيـــم وحـــــــدود الـــبـــحـــث

سعد محمد رحيم

الجزء الأول

لعل ما يُكسب كتاب فاطمة المحسن (تمثلات النهضة في ثقافة العراق الحديث/ دار الجمل ٢٠١٠) أهميته هو أنه، حسب علمي، أول كتاب جامع يبحث بهذا القدر من العمق والشمول في مقدمات ونشوء ثقافة النهضة في العراق كما صيغ خطابها، وكما تجسّدت في ممارسات ومؤسسات، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين. ويظهر جهد الباحثة المثمر في كم المصادر التي رجعت إليها، وفي فاعلية المنهج التحليلي النقدي الذي استخدمته، ومقدرتها الملموسة في الاستقراء والاستنباط، في آن معاً. إلى جانب جرأتها في بيان حدود ثقافة النهضة وتشخيص إشكالياتها بموضوعية عالية. ومن غير أن يشوب تقويمها وأحكامها آثار تحيزات إيديولوجية، أو أنها استطاعت بذكاء إخفاء مثل تلكم الآثار، وإن كان بالمستطاع الوقوع على قناعاتها وتصوراتها وأفكارها الخاصة عبر المسار الذي اختطته لبحثها والمنهج الذي توسلت به في قراءتها وتحليلها موضوعاتها الرئيسة التي يلخصها عنوان الكتاب.

كانت استنتاجات الباحثة تتراوح بين الانطلاق من فكرة عامة تصوغها، أو تقتبسها بعد أن تحظى عندها بالقبول، ثم تذهب لتثبت ذلك (منطقياً) عبر حشد مجموعة من المقولات والوقائع المأخوذة مما قيل وجرى حقاً، عبر عملية استنباط دقيقة.. في سبيل المثال أن نعرف ما هي النهضة، أو من هو المثقف العراقي قبل التحري عمّا يؤكد ما طرحناه وتبنيناه؟. هنا ننتقل من العام إلى الخاص، وحيث النتيجة تكون مساوية أو أصغر من مقدماتها كما يقول المناطقة، وبين استقراء مجموعة من المقولات والوقائع المتلازمة التي تفضي (منطقياً) إلى فكرة عامة مجردة، حيث الصعود من الجزئيات إلى القانون العام في عملية استدلال يقودنا من الجزئي إلى الكلي من خلال الملاحظة أو وضع الفرضيات والتحقق منها وحيث النتيجة تكون أكبر من مقدماتها، كما في دراستها عن مفكري النهضة الرواد (محمود شكري الآلوسي وهبة الدين الشهرستاني والأب أنستاس الكرملي والرصافي والزهاوي ورفائيل بطي ومحمود أحمد السيد). لكنها، أي الباحثة، في أكثر الأحايين، كانت تفعل الأمرين معاً، في إطار تحليلي واسع كما في الفصل الخاص بالنهضة وأقنعة الأدب، حيث مكوث الثقافة في زمن الشعر. أو في تحليلها اللامع للتمدين وصراع القيم في عراق مطلع القرن العشرين. وكانت تدرس وتحلل مناهج التيارات القائمة نفسها ومناهج الباحثين متعقبة طرق اشتغالها، أو استعمالها، عندهم، ومدى التزامهم بها أو نكوصهم عنها. وما الذي يمكن أن ينعكس عن ذلك.. تقول، مثلاً، عن منهجية الثقافة التقليدية؛ "المعرفة في الثقافة التقليدية تصلح للبرهنة على صحة الاعتقاد الديني وقدرته على تفسير الوجود، وهذا ما يمكن أن نتلمسه في الأدبيات التي تقوم على تصوّر شكل النظام السياسي أو العمران أو تفسير الظواهر الطبيعية والأخلاقية، أو صياغة التوجيهات أو الفتاوى، ولكننا قد نجد عند نفس المؤلف الذي يكتب وفق هذه التوجهات، بعض الاختراقات التي تنطوي على تصدعات في منهج المعرفة ذاته، وهذا ما كان يشكل بوادر، أو بوابات صغيرة، لدخول الأفكار الجديدة" ص٨٩،٩٠.

وما وَسعها، كانت الباحثة تتحرى، في مجرى صراعات الأفكار والرؤى، عن تباينات هذه الأفكار والرؤى وتعارضاتها مثلما طرحت من قبل معتنقيها، أي أنها كانت تستشهد برأي شخص أو فئة وتناقشه في مقابل رأي نقيض أو مختلف لشخص آخر أو فئة أخرى، وتقتفي آثارها في الفضاءات الثقافية والاجتماعية والسياسية، في سياق جدل تنظيري، أو في إطار بلاغة نظرية استدلالية متناغمة عمادها الطباق، فكانت تعي، تماماً، أن واقعاً مركّباً لا يُفهم إلاّ من خلال منهج مركّب.

حددت الكاتبة، إذن، نطاق بحثها الزماني بالنصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين، ونطاقها المكاني بولايات العراق التاريخية؛ بغداد والموصل والبصرة، ومن ثم بالإطار الجيوسياسي الجديد بعد توحيد هذه الولايات تحت حكم الملك الهاشمي فيصل الأول في دولة العراق الحديثة (١٩٢١). ذلك أن "الثقافة المدينية لم تبدأ في العراق بعد الاحتلال البريطاني، فقد شهد العهد العثماني المتأخر نواتات نشوء مجتمع في كل من بغداد والبصرة والموصل، من الموظفين والتجار والعسكريين والمتعلمين والمتصلين بالحياة الغربية، سواء أكانوا مسلمين أم يهوداً أم مسيحيين، ومنهم تشكلت فعالية المؤسسات الحديثة والدوائر الرسمية وما رافقها من مظاهر البيروقراطية. أي أن ما يمكن أن نطلق عليه بدايات التمدين حدث في فترة لم يكن العراق بعد كياناً موحداً ولا دولة مستقلة" ص٢٨٨. وقد ركزت الباحثة على ما أصابت العاصمة بغداد تحديداً، من تحوّلات في الثقافة بعدّها مجالاً إبداعياً ومعرفياً وقيمياً واعتقادياً، مع إشارات مقتضبة لما حدثت في بقية مناطق العراق لأن أغلب رواد النهضة ودعاة التنوير والتحديث إمّا كانوا من أهالي بغداد أو أنهم تركوا مدنهم والتجأوا إلى العاصمة.

اعتمدت الباحثة طقماً من المفاهيم المتداولة في حقول معرفية متعددة راحت توالف بينها لتعزيز منهجها. وفي موضوعة معقدة متشعبة كالتي تناولتها في كتابها نجدها مضطرة لاستعارة مفاهيم من علوم الأنثربولوجيا والتاريخ والاجتماع والنفس والسياسة والاقتصاد، والنقد الثقافي. وما نلاحظه طوال صفحات الكتاب أن المحسن كانت تكيّف المصطلحات المستعارة لمقتضيات وحدود بحثها وطبيعة موضوعته وسياقه. فتعطيها مضامين ومعاني تفيد ستراتيجيتها النظرية، إذ أن الاكتفاء بالمضامين الممنوحة لها من قبل المنظرين الغربيين والتي جاءت في خضم تناقضات وصراعات وتحوّلات تاريخية مختلفة كان سيعيق فاعلية وحيوية منهجها ومسار بحثها ويقوله ويفقره طالما أنها اشتغلت على موضوعة لها شروطها الاجتماعية، التاريخية الخاصة.

في هذا الكتاب نقع حيناً على آليات اشتغال منهجية من (النقد الثقافي) حيث التداخل والتنافذ بين الثقافة والسياسة والمجتمع. وحيناً نقع على آليات من منهج ما بعد . الكولونيالية حيث الذهاب والإياب من الأدب إلى الاقتصاد السياسي إلى علم الاجتماع والأنثربولوجيا إلى التاريخ وبالعكس. وحيناً نقع على تحليل يقترب كثيراً من الماركسية حيث المقاربة الجدلية للعلاقات بين الطبقة والمكانة والثقافة والسياسة كما فعل حنا بطاطو في كتابه الشهير (العراق/ بأجزائه الثلاثة).

إن الظاهرة الإجتماعية ـ السياسية ـ التاريخية الكبرى التي أطلق عليها، في ما بعد، تسمية (النهضة) اتخذت، في البدء، فضلاً عن (النهضة) تسميات أخرى متعددة مثل؛ إحياء، تنوير، يقظة، تحديث، عصرنة، الخ. وقد أدت المصطلحات آنفة الذكر المعنى ذاته، في كل مرة، برأي الباحثة. أي أنه لم يجر الاتفاق على تسمية قارة ومقبولة من الجميع لهذه الظاهرة. وقد نختلف مع الباحثة في تأكيدها أنها "كلها مترادفات تؤدي المعنى ذاته، على اختلاف أزمنتها في الاستعمال الغربي" ذلك أن الأدبيات الغربية ميّزت بين عصور: النهضة التي غطت القرنين الرابع عشر والخامس عشر. والإصلاح الديني الذي شهده القرن السادس عشر، والتنوير الذي كان سمة القرنين السابع عشر والثامن عشر، والحداثة التي رافقت الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر. ولكل من هذه المراحل (المتعاقبة) والتي تكمل بعضها بعضاً في مسار التطور التاريخي للغرب الأوروبي، خصائصها الاقتصادية والثقافية والسياسية. ولا نريد الخوض موسعاً في مضامين هذه المفاهيم (المصطلحات) مثلما تجلّت في تصورات مفكريها ودعاتها، لمحدودية نطاق هذه الدراسة. وعموماً فإن نخلع تسمية ما على ظاهرة محددة في وقت تكوّنها قد يكون مربكاً وعسيراً لعدم وضوح أبعادها وأفقها، في وقتها. ويتم الاتفاق، في الغالب، على تسمية ما، بعد أن تكون تلك الظاهرة قد استكملت بنية تحققها الموضوعي وشروط صيرورتها، وأصبحت جزءاً من التاريخ، وموضوعاً مطروحاً على بساط البحث العلمي.

حاولت الكاتبة تحديد ماهية ومضامين المفاهيم التي تستخدمها، لاسيما النهضة والثقافة، وهي تدرك تماماً صعوبة مثل هذا الأمر. فتخبرنا أن زمن التحوّل (في الفاصلة الزمنية التي تتحدث عنها) هو النهضة فيما أداة التحول هي الثقافة. وها هي تتكلم حيناً عن نهضة، وحيناً عن تنوير، وحيناً عن تحديث وتعني بها شيئاً واحداً هو التغيرات التي طرأت على ثقافة النخبة العراقية كأفكار وتصورات وآداب وفنون، وكسلوك مدني وحضاري وكرؤية عن الذات والعالم، إلى جانب الحراك الاجتماعي والتحول الاقتصادي والسياسي والبناء المؤسساتي لدولة العراق الحديثة، الخ.. وحيث "ارتبط التحديث الأدبي والفكري في العراق بظهور المثقف، المثقف الفرد الذي يملك صوته وتمردانه وخروجه على الإجماع القديم" ص٩. وهذا ليس جزماً بأن بناة الثقافة النهضوية العراقية قطعوا صلتهم بمنحدراتهم الدينية، على الرغم من تمرّدهم على الدين المحافظ.

شاع استخدام مصطلح (النهضة) في أدبيات كتّاب ذلك الزمان أكثر من بقية المصطلحات التي تؤدي الدلالة ذاتها كالتنوير في وصف حركة التحديث في الفكر والأدب العربيين. وربما يعود السبب إلى اعتقاد العرب بأن نهضتهم المأمولة لابد من أن "تشبه نهضة الغربيين من حيث طابعها" ص١٥. غير أن الباحثة تعود وترجّح سبباً آخر هو ثقل المحمول الميثولوجي في مفردة النهضة ومطابقتها مفردات من قبيل الانبعاث أو الإحياء لغلبة السمة الدينية على الثقافة العربية. وفي غضون ذلك تشير إلى مصطلح التهجين (التبيئة) حيث تجري استعارة المصطلحات والمفاهيم من بيئة مختلفة وسياق تاريخي ثقافي مغاير ومحاولة استعمالها في بيئتنا التي "لم تشملها دورة التحوّلات التي نشأت فيها المجتمعات الغربية الحديثة، وغدت بفضلها مفردات حياة وممارسة ترتبط بتاريخ تلك الشعوب وذاكرتها" ص١٤. وتشير الباحثة إلى مدى صعوبة عملية "ابتكار وسائل لتطويع المصطلحات وتهجينها وفهم الكيفية التي اشتغلت فيها ضمن حركة مجتمعات تابعة، وتعاني هذه التبعية" ص١٧. كذلك ترد، هنا، مصطلحات أخرى حافّة كالتثاقف والاقتباس والتنافذ بين الحضارات. وقد تعبّر عن الارتباك الحاصل في ترجمة المصطلحات في الحقل المعرفي العربي حتى يومنا هذا، لكنها كلها تعكس مستويات من التأثر والتأثير الثقافي في خضم الاحتكاك، بأشكاله كافة، بين أفراد وجماعات من مجتمعاتنا والمجتمعات الغربية..

لعل مصطلح (التثاقف) ينطوي على أهمية خاصة في إطار الموضوعة التي تشغل بال الكاتبة. ومعناه كما تخبرنا هو؛ "تبادل السمات الثقافية، الناشئ عن احتكاك مجموعة من الأفراد والشعوب احتكاكاً متواصلاً ومباشراً، على أن تكون هذه المجموعات منتجة لثقافات متباينة" ص١٧. ١٨. وتفرّق بين نموذج التثاقف الظاهر في الاستعارة الحرّة والتعديل في عناصر الثقافة في ظل العلاقات الحرّة، وبين التثاقف الذي يجري عبر خطة مدروسة في ظل الهيمنة العسكرية والسياسية.

وطوال صفحات الكتاب ستتكرر مفردات (مصطلحات)؛ النهضة والتنوير والتحديث لتوصيف تلك الحركة الثقافية الكبرى التي بدأت منذ منتصف القرن التاسع عشر في الفضاء الثقافي العربي (والعراق من ضمنه) حيث حصلت إزاحة لا تنكر، وإن كانت محدودة وقاصرة، في نطاق استخدام المفاهيم وطرق اشتغالها منهجياً بلغة آخذة بالتجدد وسائرة نحو تحقيق ترسيمة جديدة للفكر والثقافة. هذه الحركة التي لم تخلُ من الاتساق، مع حراك اجتماعي وتطور اقتصادي نسبي، وتغير كبير في الخريطة الجيو . سياسية لاسيما بعد أفول نجم الإمبراطورية العثمانية وتكوين الدول العربية الجديدة (منها الدولة العراقية ١٩٢١) على وفق ترتيبات اتفاقية سايكس بيكو. أقول؛ هذه الحركة التاريخية هي التي شكّلت الموضوعة الرئيسة لكتاب فاطمة المحسن المميز.

وإذن، يقوم منهج الكاتبة وإطار بحثها على الربط العضوي، الجدلي بين مصطلحات (مفاهيم) النهضة والحداثة والثقافة، ومن ثم الهوية. فتوسّع مفهوم الثقافة باستعارة تعريف جيرار ليكريك لها وهي "الخطابات الضامنة لهوية الجماعة والقيم المركزية السائدة فيها، وبثها في الزمان والمكان المناسبين" ص٢٨. وتلاحظ الإزاحة الحاصلة في المفهوم والتي اكتسبتها الثقافة في الأدبيات العراقية باشتباكها مع مفهوم التقدم والتحديث.. تقول؛ "وهي هنا تلتقي مع معناها الغربي باعتبارها تنطوي على بُعد الحداثة المضمر في كلمة ثقافة" ص٣١. ولا أظن أن كلمة (ثقافة) انطوت على بُعد الحداثة بشكل مطلق في تعريفات المفكرين الغربيين. وأنْ تكون قد ظهرت مع كلمة (إيديولوجيا) في سياق تكوّن الحداثة في أوروبا (تنظيراً وممارسات) بنزوعها التنويري والإنساني والزمني، لا يعني بأية حال أنها مرادفة أو مناظرة للتحديث. والكاتبة نفسها تشير إلى أن المعنى الأوسع (الأنثربولوجي) للثقافة لا يفرّق بين شعب بدائي وآخر متحضر. لكن حين نحاول إيجاد ارتباط (الثقافة) مع غيرها من المصطلحات، وهي، في هذا المقام: النهضة والحداثة والتقدم، في سياق تاريخي محدد، هو، هنا؛ سياق مرحلة النهضة في العراق (نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين) يكون مثل هذا الربط والتضمين والاشتباك المفهومي وارداً ومنطقياً ومقبولاً.

ومن المصطلحات التي تستعملها الباحثة في فصول عديدة من كتابها مصطلح الفعل الاجتماعي والفاعل الاجتماعي وقد أخذتهما من ماكس فيبر على وجه الخصوص حيث "الفرد الفاعل ينسب إلى فعله معنىً ذاتياً، سواءً أكان يجري بطريقة مبطنة أم موارِبة أم ممتثلة" ص٣٥. وتشير إلى تعريف آلان تورين للذات الفاعلة بأنها "نمط بناء الخبرة الاجتماعية، كما هي العقلانية الأداتية" ص٣٦.

وإذا كانت الباحثة قد اقتصرت في محتوى بحثها، غالباً، على الثقافة المكتوبة أدباً وفكراً ومقالات صحافية فإنها كانت تتطرق، بين الفينة والفينة، إلى النواحي الأخرى كالتحولات المدينية وهي تتجلى في أنماط السلوك وأشكال المؤسسات المستحدثة والعمران. تقول؛ "في ذلك المضطرب كانت تتغير العادات والملابس وأنواع التسليات، ويخرج رجال جدد تعلموا الفنون العسكرية أو القانون أو تثقفوا في المدارس الدينية. يخرجون من الأزقة الضيقة ودور العبادة ومقاهي الحارات إلى عالم أكثر رحابة ولكنه أكثر التباساً في صدقية تمثله لمفهوم التجديد والثقافة، كلاً على حدة، لتصبح أحد أماكن إلهامات الكتّاب والمتأدبين ومراكز لقاءاتهم: منتديات الموظفين ومجالس الساسة والمثقفين، ونوادي لعب البريدج والقمار والبارات والمراقص الليلية".

وتستشهد بمقطع من كتاب رحلة وليم بيري فوك إلى بغداد (١٨٧٥)؛ "ومن ذا الذي يستطيع أن يقول إنه لا أمل في مستقبل زاهر لأناس عندهم مستشفى، وملجأ أيتام، ودار طباعة، وهم يديرونها إدارة كاملة وبكل انتظام. ومن ذا الذي كان يتوقع هذه الثقافة وهذه المدنية في مدينة ارتبطت في أذهان الأوروبيين والأميركان مع العظمة البربرية التي كانت للخلفاء في عصر (ألف ليلة وليلة)" ص٢٩٤. هنا، سيغيّر دخول منجزات التكنولوجيا ووسائط النقل ووسائل الاتصال الحديثة من علاقة الفرد والمجتمع بالزمان والمكان والآخرين لينعكس، من ثم، على منظومات القيم والمعتقدات وأشكال المؤسسات وشبكات علاقاتها. وستتجلى أو تتمثل النهضة، بهذه النسبة أو تلك، في بنية الدولة الناشئة وثقافة النخب الثقافية والسياسية.

الـــوطـــن ومـــفـــهـــوم الـــتـــضـــحـــيـــة

محمد صادق جراد

تطفو مفردات الموت والتضحيات والقرابين في أيدلوجيات الشعارات العربية وأدبياتها ونجدها تطغى على مفردات أخرى كالحياة والتقدم و السلام حيث ترسخت في ذاكرة الفرد في هذه المجتمعات قناعات خاطئة مفادها ان الأوطان لكي تتقدم تحتاج الى القرابين والدماء وسلب أرواح أبنائها . وحسب هذا المفهوم نجد ان الوطن لكي يعيش لابد من أن يموت شبابه تحت شعار (نموت نموت ليحيا الوطن) .

وهذه المفاهيم والشعارات وجدت الدعم والتأييد من قبل الأنظمة الدكتاتورية التي زرعتها و سخرتها لخدمة ممارساتها التعبوية وجعلت من الموت شرطاً ودليلاً على حب الوطن وربطت بين المواطنة وبين الولاء للقائد او الحزب وبقيت الأوطان على مدى العصور تسقى بدماء أبنائها ولم ترتو ولم تتقدم يوماً بل ظلت تراوح في مكانها وفشلت في ان تهب أبناءها الحياة وتعوضهم عما قدموه من قرابين في طريق العزة والكرامة والسيادة المزعومة.

ومن الجدير بالذكر ان هذه المفاهيم تجسدت في أدبيات العرب وعبر قصائد الشعراء .وقد لا أجد من يتفق معي عندما انتقد قصائد ترسخت في ذاكرة الأجيال العربية ومنها أنشودة (لبيك يا علم العروبة كلنا نفدي الحمى لبيك واجعل من جماجمنا لعزك سلما .لبيك ان عطش اللوا سكب الشباب له الدما).ونجد هنا ان لغة الدم والموت تطغى على معاني هذه الأنشودة ، ونلاحظ تكرار مصطلح الجماجم في أدبيات الأمة العربية في أكثر من قصيدة وهي تلك التي تحصدها ممارسات الحكام الخاطئة في زج بلدانهم في حروب غير عادلة مع عدو خارجي مفتعل جعلته السياسات الخاطئة للأنظمة الحاكمة طرفاً في حرب تأكل الأخضر واليابس معاً او عدواً داخلياً كل ما اقترفه انه لم يؤمن بفكر الحزب والحاكم .ونريد ان نقول هنا ان ملايين الجماجم التي قدمها العراقيون في الحرب العراقية – الإيرانية وفي عملية اجتياح الكويت إضافة للجماجم التي عثر عليها في المقابر الجماعية بعد سقوط النظام الشمولي في العراق في ٢٠٠٣ كل هذه الجماجم لم تكن كافية لتصبح سلماً لعلم العروبة وبقي العراق بعيداً عن التقدم والرقي والعيش الرغيد لعقود طويلة.

وهنا لا بأس بالاستشهاد بقصيدة الشاعر الكبير الجواهري وهو يقول (بلد دعائمه الجماجم والدم، تتقدم الدنيا ولا يتقدم) رداً على شاعر عربي قال نفس البيت ولكنه قال عن هذا البلد (تتهدم الدنيا ولا يتهدم) .

حيث يوافقنا الجواهري الرأي بأن الدماء والموت لا يساعدان إلا في تأخر الدول وان ما يساهم في تقدمها هو عرق أبنائها وإبداعاتهم حين يشعرون بأنهم ينتمون فعلاً لوطن يعترف بقيمتهم الإنسانية ولا يعتبر المواطن فيه مجرد نسمة او رقم ممكن أن يضحى به. وعبر هذه العقود التي عاشها العراق في ظل أعتى الأنظمة في المنطقة وجد الإنسان فيه نفسه أمام خياران كلاهما مرّ فإما ان يضحي من اجل قضية لا يؤمن بها ليلفه علم العروبة ويأخذه صوب الموت او يموت ميتة أخرى بعنوان الخيانة العظمى او التخاذل، حتى صار الوطن كالآلهة التي تقدم لها القرابين وكالغول الذي يأكل أعزاءنا ويلقي بهم في بطنه ولا يعرف الشبع ،مما اضطر أبناءه إلى مغادرته إلى بلدان أخرى طلباً للعيش بسلام بعيداً عن الجماجم والحروب والسجون وكتّاب التقارير وقاطعي الرؤوس والألسن .

واليوم وبعد ان تخلصنا من الأنظمة الاستبدادية التي تعاقبت على حكم العراق وبعد انتهاء مرحلة الانقلابات والثورات وبداية مرحلة التغيير الديمقراطي نجد أنفسنا من جديد أمام أيدلوجيات الموت الدينية الضيقة التي ترفعها عصابات القاعدة تحت شعارات الجهاد وقتل النفس التي حرم الله ،لتستمر مسيرة التضحيات لأبناء العراق ولتزيد من ثقل ومرارة الألم من فقدان الأعزاء والهدف المعلن هذه المرة بناء الدولة الإسلامية حيث نشهد تنامي ضروب جديدة من الاستبداد الفكري ينمو في الساحة الإسلامية عبر ظهور أيدلوجيات شمولية تفسر الدين بما يتلاءم مع مصالحها لتمنح نفسها شرعية قتل الآخرين ليتماشى فعلها هذا مع أيدلوجيات صناعة الموت التي تمارسها الأنظمة الاستبدادية مع اختلاف الشعارات والأهداف المعلنة . نريد أن نقول في الختام ان جميع الأيدلوجيات التي تؤمن بأن الأوطان تحتاج إلى القرابين لكي تعيش وتزدهر قد أخطأت وظلمت أبناءها عندما سلبتهم أرواحهم ولم تهبهم الحياة والأمان والعيش الرغيد.

أما التضحيات التي يقدمها الشرفاء في قضايا عادلة لاسترجاع الحق فإنها تستحق الاحترام لأنها تصنع الحياة ولا تدعو للموت من أجل الموت .